أحكام ترجمة القرآن الكريم وتاريخها

الاستاذ عبد اللطيف الطيباوي

(١)

ترجم غير المسلمين القرآن الى لغاتهم بقصد الرد عليه ، وأول ترجمة من هذا النوع كانت الى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى • ثم ترجمه آخرون من هؤلاء في العصور الحديثة الى لغات اوروبية اهمها الانكليزية والفرنسية • ولكن لم يترجمه أحد من المسلمين حتى العهد الأخير ، وجلّ هؤلاء لم يكن كلهم من غير العرب او ممن دخلوا في الاسلام حديثاً • فما هي اسباب ذلك ، مع ان كثرة المؤمنين برسالة محمد ﷺ هم من غير العرب ولا يتكلمون اللغة العربية ؟ السبب الأول بل أهم الاسباب كلها هو نص هذه الآيات الكريمة :

(١) إنّا أنْزلناه قرآناً عربياً ••• (سورة يوسف الآية الثانية)
(٢) وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ••• (سورة طـه ، الآية ١١٢)
(٣) قرآناً عربياً غير ذي عِوَج ••• (سورة الزمـر ، الآية ٢٧)
(٤) كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً••• (سورة فصلت، الآية الثانية)

(٥) وكذلك أوحيناه اليك قرآناً عربياً ... (سورة الشورى ، الآية ٦)
(٦) إنّا جعلناه قرآناً عربياً ... (سورة الزخرف، الآية الثانية)
(٧) وهذا كتاب" مُصَدِّق" لساناً عربياً ... (سورة الأحقاف ، الآية ١١)

أمام هذه الآيات وغيرها سألوا هذا السؤال : لما كانت رسالة محمد للناس كافة ، وليس للعرب خاصة ، فكيف بلغت الى من كان لا يفقه العربية ؟ لا شك ان رسول الله بلّغ الرسالة الى العرب بلغتهم ، وبها للقليلين من غير العرب لأنهم كانوا يفهمونها ويتكلمونها . ولا شك انها بُلّغت بعده ، وبعد خروج العرب من الجزيرة ودخول امم من غير العرب في الاسلام ، بالتعليم الشفوي على طريقة العرب ، تَلْقيناً مع التفسير أو الترجمة . والغالب ان ذلك اقتصر في البدء على تعليم الشهادتين وسورة الفاتحة وبعض السور القصيرة ، مع شرح أحكام الحلال والحرام ، وتوضيح كيفية الصلاة ، وما شابه ذلك . وهذه الطريقة ظلت متبعة في نشر الاسلام على مر العصور حتى أيامنا هذه . فمثلا تعليم البربر في المغرب يبدأ بشرح المعنى لهم شفهياً بلهجتهم ، ولا يطلب استظهار غير ماشُرح معناه على هذه الطريقة . ولا شك ان هذه سنة انتقلت الى معلمي هذا الزمان من اسلافهم[1] .

والمشهور ان رسول الله كان يَميل الى اليُسْر في تلاوة القرآن . ورد ان عمر بن الخطاب اختلف مع هشام بن حكيم حول قراءة سورة الفُرقان فاحتكما الى رسول الله ، فقال لكل منهما بعد أن سمع قراءته « كذلك أنْزلت » . ثم قال لهما جميعاً : « إن هذا القرآن قد أنْزل على

(١) كما جاء في مقالة السيد محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي ، وزير معارف المملكة المغربية ، في « نور الاسلام » (مجلة الازهر فيما بعد) لسنة ١٣٥٥ هـ (السنة السابعة ، العدد الثالث) ، ص ١٩٢ .

سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسّر منه . »[٢] وأغلب المفسرين ان المقصود بالاحرف اللهجات العربية ، وعليه فالقراءة كانت حينئذ مباحة باللهجة التي يجدها القارىء أيسر على لسانه .

وروي ان بعض الصحابة ، وفيهم ابن مسعود ، كان احياناً ، وقياساً على ماسبق ، « يقرأ بالمرادف » . وفسّروا ذلك انه «أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم (لهجاتهم) التي جرت عادتهم باستعمالها ، على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ، ولم يُكلف أحد منهم الانتقال من لغته (لهجته) الى لغة اخرى للمشقة ، ولما فيهم من الحميّة ، ولطلب تسهيل المراد ، كل ذلك مع اتفاق المعنى . »[٣]

ينطبق هذا الشرح على ما شرعه رسول الله في حياته . اما بعد وفاته، وعدم وجود من يقوم مقامه حكماً عند الاختلاف في التلاوة ، فقد آل ذلك الى كتابة القرآن في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان ، تثبيتاً للنص كما حفظه أشهر الرواة والقراء . فالاختلاف لم يكن إلا في التلاوة لا المعنى . ولم يثبت ان مسألة نقل المعاني من اللغة العربية الى غيرها قد أثيرت في حياة الرسول أو في عهد خلفائه الأولين . لكن كتب الفقه الحنفي ، وكلها كتبت في عهد متأخر ، تزعم ان رسول الله أجاز ترجمة سورة الفاتحة الى اللغة الفارسية وقراءة الترجمة في الصلاة . وجاء هذا الزعم في ثلاث روايات :

الأولى : « ان الفرس كتبوا الى سلمان الفارسي ان يكتب لهم

(٢) صحيح البخاري (بولاق ، ١٢٩٦) ج٦ ص ٩٧ ، وايضا ج٨ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (القاهرة ، ١٣٤٨) ج٩ ص ٢١ـ٢٢ . انكر هذه الرواية ابن الجزري في كتاب « النشر في القرآت العشر » (دمشق ، ١٣٤٥) ج١ ص ٢١ ، ٣١ .

الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرؤون ذلك في الصلاة حتى لانت ألسنتهم للعربية »(٤)

الثانية : « ان اهل فارس كتبوا الى سلمان الفارسي ان يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب ، فكانوا يقرؤون ماكتب في الصلاة حتى لانت ألسنتهم ، وقد عرض ذلك على النبي ﷺ فلم يُنْكره عليه »(٥)

الثالثة : « وعن سلمان ان قوماً من الفرس سألوه أن يكتب لهم شيئاً من القرآن ، فكتب لهم فاتحة الكتاب بالفارسية »(٦).

لم يرد أي نص من هذه النصوص في صحيح البخاري او صحيح مسلم . ولم يذكر أياً منها أحد من الأئمة . ولكن لا صعوبة في تجريحها من الناحيتين التاريخية والدينية ، اذ لا يُثْبت التاريخ وجود مسلمين في بلاد فارس أقاموا الصلاة في حياة رسول الله وقبل الفتح الاسلامي ، واختلاف أئمة المسلمين في جواز ترجمة القرآن أو بعضه ، وجواز الصلاة بما هو مترجم ، برهان قاطع على عدم صحة القصة ، اذ لا يُعقل ان يخالفوا ما أقره رسول الله ولو بسكوته .

يُرجّح ان القصة لم تظهر قبل الامام ابي حنيفة الذي ولد من أصل فارسي حوالي سنة ٨١ للهجرة ، فهو أول من قال بجواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة . والمؤكد ان رأيه هذا لم يكن نتيجة أصله الفارسي ،

---

(٤) كتاب المبسوط (المحتوي على كتب الشيباني عن أبي حنيفة) للسرخ ي (القاهرة ، ١٣٢٤) ج١ ص ٣٧ .

(٥) نقلا عن كتاب « النهاية والدراية » في مقالة الشيخ محمود أبو دقيقة في مجلة « نور الاسلام » (مجلة الازهر) ، العدد الاول من السنة الثانية ، ص ٣٢-٣٣ .

(٦) مجموع النووي (مطبعة التضامن بالقاهرة ، بلا تاريخ) ج٣ ص ٣٨٠ (هذا الكتاب من كتب الفقه الشافعي) .

بل رغبة صادقة في إزالة صعوبة حقيقية ، وجدها الداخلون في الاسلام من غير العرب عندما أرادوا تأدية فريضة الصلاة ، فمقدرتهم على النطق بالعربية كانت ضعيفة ، ومعرفتهم بالقرآن ضئيلة ، فرأى ابو حنيفة من المصلحة تَيْسير أمر عسير عليهم .

وعلى رأيه بنى بعض أصحابه جواز قراءة القرآن في الصلاة بلغات اخرى كالتركية والهندية والسريانية والعبرانية . لكن المهم في هذا التجويز الحنفي اقتصاره على الصلاة ، ولم يكن إذناً بترجمة القرآن جملة . لكن رغماً عن هذا التحديد فقد أثار رأي ابي حنيفة جدلاً عنيفاً ، وخالفه فيه صاحباه ، ابو يوسف والشَّيْباني ، اللذان أذنا بقراءة القرآن في الصلاة بالفارسية لمن كان عاجزاً عن القراءة بالعربية فقط . وذهب بعض من جاء بعدهما من اتباع ابي حنيفة انه رجع عن رأيه(٧) .

واستمر الجدل بعد أبي حنيفة ، فالتمس بعض أصحابه لرأيه سنداً من القرآن والسنة . فقالوا إن رسول الله عندما ارسل كتاباً بالعربية الى هِرَقْل ملك الروم وفيه « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً اراباباً من دون الله » (سورة آل عمران ، الآية ٦٣) ، عَلِمَ ان هذه الآية مع الكتاب ستترجم للملك ، وهذا يُعَد إذناً بترجمة غيرها . واشاروا الى قوله تعالى « وإنّه لَفي زُبُر الأوّلين » (سورةالشعراء ، الآية ١٩٥) فقيل لهم ان معنى القرآن لا لفظه كان في كُتُب الأولين ، والآيات السابقة لهذه

(٧) كتاب الهداية في الفروع لعلي المرغيناني (طبع لكنو بالهند ، ١٣٠٢) ج١ ص ٨٦ . من المتقدمين الذين قالوا برجوع ابي حنيفة عن رايه جلال الدين السيوطي في كتاب « الاتقان في علوم القرآن » (القاهرة ١٣٦٠/١٩٤١)ج١ ص ١٨٨ ، ومن المتأخرين الشيخ محمد رشيد رضا في « تفسير المنار » (القاهرة ١٣٤٧/١٩٢٨) ج٩ ص ٣١٣ ، ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

الآية لا تترك مجالاً للشك ان القرآن نزل « بلسان عربي مبين » • واشاروا ايضاً الى قوله تعالى « إنّ هذا لَفي الصُّحُف الأُولى صُحُفِ ابراهيم وموسى » (سورة الأعلى ، الآيتان الاخيرتان) ، فكان الجواب شبيهاً بما سبق ، اي ان معاني القرآن لا الفاظه وجدت في صحف الانبياء السابقين[٨] •

ثم قال الحنفية ان التفسير والترجمة في اللغة معناهما واحد ، فاذا جاز تفسير القرآن جازت ترجمته • ولكن هذا القياس لم يقبله علماء المذاهب الأخرى • ومن اجوبتهم ان المفسر قد يُصيب وقد يخطىء في فهم مراد الله ، ولكن كلامه سبحانه وتعالى يظل المرجع الوحيد في المصحف (ولم يقل الحنفية بجواز قراءة التفسير في الصلاة) • اما المترجم فينقل كلام الله من العربية الى لغة اخرى ، فيوهم الناس ان ما نقله الى هذه اللغة هو القرآن لا معانيه • ولعل أقوى الردود على الحنفية ما بني على قوله تعالى « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته » (سورة فصلت، الآية ٤٣) ، فهذا بحسب رأي المفسرين معناه انه لم يكن مراد الله إلا ان يجعل القرآن عربياً •

كل الحجج التي ذكرها الحنفية بناءاً على القرآن قائمة على القياس ، وضعفها ظاهر • وأقوى حُججهم العقلية المبنية ايضاً على القرآن أن التكليف يكون بحسب الوُسْع ، عملاً بقوله تعالى « لا يُكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة ، الآية ٢٨٥) ، وعليه يجوز للأعجمي العاجز في العربية أن يقرأ القرآن بلغته • وأبلغ فما رد على ذلك هو الامام الشافعي ، ولا عجب فهو العربي القرشي الهاشمي • قال لا تجوز القراءة

(٨) الكشاف (تفسير الزمخشري) طبعة كلكتا ١٨٥٦ ج٢ ص ١٠٠٨ ـ ١٠٠٩ • وانوار التنزيل (تفسير البيضاوي) طبعة ليبزك ١٨٤٨ • ج٢ ص ٦٠ ، ٣٩٩ •

إلا باللسان العربي ، لأن القرآن أنزل به ، ولا يكون قرآناً بلسان غيره ، والقرآن معجز باللسان العربي ، فاذا تُرجم الى غيره ذهبت عنه صفة الاعجاز . اما العاجز عن القراءة بالعربية فله بدلاً من ذلك أن يسبّح ويهلل في الصلاة[٩] .

(٢)

بحث إعجاز القرآن طويل ويتناول عدة مسائل . هل المقصود اعجاز العرب ام الناس كافة ، وهل اعجاز القرآن هو في نظمه الفريد في البلاغة والفصاحة ، او في اجتماع الجزالة مع الاسلوب المخالف لاساليب كلام العرب ، او في النظم واللفظ والمعنى جميعاً ، او في الإخبار عن غيوب المستقبل ؟[١٠]

أصل الاعجاز هو التحدي الموجود في القرآن : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مثله » (سورة البقرة ، الآية ٢٣) . واحتج النظام المعتزلي ان الله قد صَرَف العرب عن ان يأتوا بمثل القرآن في قوله تعالى « قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتكون بِمِثْله ولو كان بعضُهُمْ لِبعضٍ ظهيراً » (سورة الاسراء ، الآية ٨٨) وعلّق الباقلاني على ماسبق فقال إن الاعجمي لا يمكنه ان يعلم إعجاز القرآن إلاّ استدلالاً ، وكذلك من لم يكن بليغاً (من العرب)[١١] . ومثل ذلك ما ذهب اليه البغدادي بقوله « ان فصاحة القرآن

(٩) جاء كلام الشافعي في كتاب لمؤلف حنفي ، كتاب بدائع الصنائع للكاساني (القاهرة ، ١٣٢٧) ج١ ص ١١٢ .

(١٠) قابل رأي امام الحرمين الجويني في كتاب الارشاد (مطبوعة لوسياني ، باريس ١٩٢٨) ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ برأي ابن تيمية في مجموع الفتاوى (مطبعة كردستان بالقاهرة ، ١٣٢٩) ج٥ ص ١٤٥ .

(١١) اعجاز القرآن (تحقيق السيد احمد صقر . القاهرة ١٣٧٤/١٩٥٤) ص ٣٩٣ .

لا يعرفها إلا العرب ... فاذا علمت العجم ان العرب أهل اللسان قد عجزوا عن معارضته علموا كونه معجزاً ... وانه لو كان من جنس كلام البشر لقدر على مثله أهل اللغة »[١٢] .

كل هذا يستدعي النظر باختصار الى بعض ما قيل في إعجاز اللغة العربية مجرداً عن إعجاز القرآن . فالجاحظ مثلاً يقول ان « فضيلة الشعر » مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسانهم ، والشعر (العربي) لا تستطاع ترجمته ، اذ لو حُوّلت حكمة العرب (شعرهم) الى غير العربية لبطل ذلك الاعجاز . ثم يقول ان ترجمة القرآن أعسر ومخاطرها أكبر[١٣] .

ولم يقتصر هذا الرأي على العرب ، بل قاله غيرهم من غير العرب الذين استعربوا . خذ مثلاً على ذلك جماعة اخوان الصفا التي تكونت من العرب والعجم ، وعرف اعضاؤها غير اللغة العربية لغات اخرى ذكروا منها الفارسية والسريانية والعبرانية واليونانية والرومية (اي اللاتينية ؟) . وهذا رأيهم في اللغة العربية :

« اللغة التامة هي لغة العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب . فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوانات . ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانية كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغات الانسانية وختام صناعة الكتابة ، ولم يحدث شيء بَعْدُ ينسخها ... اما القرآن فانه لا يقدر أحد من الأمم على اختلافهم في لغاتهم ان يُحيله عما

---

(١٢) كتاب أصول الدين لابي منصور عبد القاهر البغدادي (استانبول ١٣٤٦/١٩٢٨) ص ١٨٤ .

(١٣) كتاب الحيوان (تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ١٣٥٣) ج١ ص٧٤-٧٧

هو به من اللغة العربية الى لغة غيرها ، لأنه لا يمكن أن يُنْقل البتة الى لغة أخرى . »(١٤)

ويشبه هذا ما قاله الشَّهْرَسْتاني : « كما تميز نوع الانسان عن أنواع الحيوانات بالنطق المعبر عن الفكر كذلك تميز لسان العرب ولغتهم من سائر الالسن واللغات باسلوب آخر من عذوبة اللسان ورطوبة اللفظ وسهولة المخارج والتعبير عن متن المعنى الذي في الضمير بأوضح عبارة وأصح تفسير ... »(١٥)

وهنا لا بد من سؤال . رأي الجاحظ ورأي المستعربين في تفوق اللغة العربية على سائر اللغات يثير سؤالاً يصعب الجواب عليه . هل كان الجاحظ وهؤلاء الذين ذكروا سابقاً والذين سيذكرون فيما بعد يعرفون لغات الأمم في عهدهم معرفتهم باللغة العربية ؟ كيف أمكنهم ان يفاضلوا ويحكموا اذا كانوا لا يعرفون غير العربية ؟ اذا استثنينا اللغة الفارسية التي عرفها من كان أصله فارسياً ، واذا استثنينا معرفة اخوان الصفا باللغات التي ذكروها ، فالغالب ان العرب خاصةً والمستعربين عامة ، قد حكموا بتفوق اللغة العربية دون نظر طويل في غيرها من اللغات الاسلامية وغير الاسلامية . بل سحرتهم بلاغة القرآن وصرفتهم عن التفصيل في المقابلة . ولم يرد فيما نعلم أن احداً منهم حاول شيئاً من المقابلة . وما سنذكره فيما يلي عن الغزالي اقتصر على قوله المجمل ان بعض الالفاظ العربية لا مقابل لها بالفارسية بطابقها ، وان بعضها له ما يقابله لكن الفرس لا يستعملونه للمعاني التي يحتملها اللفظ العربي عند العرب . (اما قول

(١٤) رسائل اخوان الصفا (القاهرة ١٩٢٨/١٣٤٧) ج٣ ص ١٥٣ ، ١٧١ ، ٣٥٣ .
(١٥) كتاب نهاية الاقدام في علم الكلام (مطبوعة غيوم ، اكسفورد ، ١٩٣٤) ص ٤٤٧ .

الجاحظ ان فضيلة الشعر مقصورة على العرب فيرفضه المتخصصون بشعر اللغة اليونانية مثلاً ، ولكنهم وكثير غيرهم ، حتى في هذه الايام ، يوافقونه على ان ترجمة الشعر العربي الى لغة اخرى عسيرة وترجمة القرآن أعسر).

والقول باعجاز اللغة العربية مجرداً عن إعجاز القرآن أو مقروناً به جعل غير واحد من علماء السلف ان يُنْكر وجود المُعرّب في القرآن . وهذا موضوع اهتم به بعض الباحثين من غير المسلمين في العهد الحديث . ولكن سبقهم الى ذلك علماء المسلمين عندما تجادلوا في اعجاز القرآن .. وهنا ايضاً لم يكن كل الذين انكروا وجود المعرّب في القرآن من العرب . فهذا ابو عُبَيْدة (مَعْمر بن محمد) كان من أصل فارسي يهودي ، ثم أصبح حجة في غريب الالفاظ العربية . وهو أحد الذين انكروا وجود المعرّب في القرآن بقوله « من زعم ان فيه غير العربية فقد أعظم القول . »[١٦] وعليه لا يستغرب ان ينكر ذلك الامام الشافعي بقوله ان الدلالة على عدم وجود غير العربية فيه بيّنة في غير موضع من كتاب الله فجميعه انزل بلسان العرب[١٧] وفسّر الطبري مارُوي بسند صحيح عن ابي ميْسرة التابعي قوله « في القرآن من كل لسان » ، ان ذلك مجرد اتفاق الالفاظ بين العربية وغيرها[١٨] . وتوسّع في ذلك السيوطي ، ناقلاً عن مصدر لم يسمه ، فقال كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم مخالطة مع غيرهم في اسفارهم للتجارة « فعَلِقَتْ من لغاتهم ألفاظاً غيّر بعضها بالنقص من حروفها ، واستعملتها (العرب) في اشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل

(١٦) كما ورد في كتاب الاتقان في علوم القرآن ، ج١ ص ٢٣٠ .
(١٧) الرسالة في أصول الفقه (بولاق ، ١٣٢١) ج١ ص ٨-٩ .
(١٨) تفسير الطبري : جامع البيان (بولاق ، ١٣٢٣) ج١ ص ٦-٧ .

بها القرآن » • بناءاً عليه فالكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً » •

نشأ هذا التأكيد باعجاز العربية وربطه باعجاز القرآن في أول المئة الثانية للهجرة ، وازداد نمواً وشدة مع الزمن ، ورافقه إجماع أكثر أهل السنة على رفض رأي ابي حنيفة حتى ورفض رأي صاحبيه مع مخالفتهما له في اطلاق الحرية • وفي هذه المعركة كاد العلماء أن ينسوا تسامح رسول الله في تلاوة القرآن ، بالتزامهم العُسْر بدلاً من اليُسْر في المسألة • وقد أجملنا فيما سبق حجج الحنفية والرد عليها ، واتماماً للبحث نذكر فيما يلي تفصيل رأي الأكثرية •

كان أشد المخالفين للحنفية الامام الشافعي • وهذا تفصيل رأيه : « ان لسان العرب أوسع الالسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط علمه انسان غير نبي ••• وكما انه على أهل كل دين قبله (محمد) اتباع دينه ، هكذا على أهل كل لسان أن يتبعوا لسانه • وعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد ••• وكلما ازداد باللسان العربي الذي جعله الله لسان مَنْ ختم به نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيراً له • كما عليه ان يتعلم الصلاة والذكر به ، ويأتي البيت وما أمر باتيانه ، ويتوجه لما وُجّه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه، وندب اليه ، لا متبوعاً[١٩] •

وهذا قريب من رأي ابن قتيبة الفارسي الأصل ، فانتصاره للقرآن

(١٩) كتاب الرسالة في أصول الفقه ، ص ٩ •

انتصار مؤمن برسالة محمد وتفوق اللغة العربية على غيرها من اللغات • قال : « وللعرب الشعر الذي اقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها ••• وحرسه بالوزن والقوافي وحسن النظم ••• فمن أراد أن يُحدث فيه شيئاً عَسُر ذلك عليه ••• وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها التمثيل والاستعارة والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والافصاح والكناية ••• وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله الى شيء من الألسنة ، كما نقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب • »(٢٠)

وفيما يلي رأيان لعالمين أصلهما غير عربي • فالأول لحجة الاسلام ابي حامد الغزالي الذي قال : « التفسير وأعني به تبديل اللفظ بلغة أخرى يقوم مقامها في العربية أو معناها بالفارسية او التركية ، بل لا يجوز النطق إلاّ باللفظ الوارد ، لأن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية يطابقها ، ومنها مايوجد لها فارسية يطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها منها ، ومنها ما يكون مشتركاً في العربية ولا يكون في العجمية كذلك • »(٢١)

يُفهم من كلام الغزالي هذا ان التفسير معناه الترجمة ، والكلام على اضطرابه واضح الدلالة من ان الترجمة من العربية الى الفارسية وغيرها غير ممكنة • اما الرأي الثاني فهو للزمَخْشري الذي توفي بعد الغزالي

(٢٠) تأويل مشكل القرآن (مطبوعة السيد احمد صقر • القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤) ص١٥-١٦
(٢١) الجام العوام عن علم الكلام (استانبول ، ١٢٨٧) ص ١٦ •

بنحو نصف قرن • قال في تفسير الآية « وما ارسلنا من دسول إلاّ بلسان قومه » (سورة ابراهيم ، الآية الرابعة) إن الحكمة في ذلك « ليفهموا عنه ما يدعوهم اليـه ، فلا يكون لهم حجـة على الله ، ولا يقولون لم نفهم ما خُوطِبْنا به ، فإن قلتَ لم يبعث رسول الله ﷺ للعرب وحدهم ، وانما بُعث للناس جميعاً ••• وهم على ألسنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة ••• قلتُ لا يخلو إمّا ان ينزل (القرآن) بجميع الألسنة او بواحد منها ، ولا حاجة لنزوله بجميع الالسنة لأن الترجمة تنوبُ عن ذلك ••• فبقي ان ينزل بلسان واحد ، وكان أَوْلى الالسنة لسان قوم الرسول ••• فاذا فهموا عنه وتبيَّنُوه وتُنُوقِل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما تُرى الحال ونشاهد من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ••• مع ما في ذلك من اتفاق اهل البلاد المتباعدة والامم المختلفة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلم معانيه••• »(٢٢)

والمعنى الظاهر في هذه الفقرة لكلمتي « الترجمة » و « التراجم » هو التفسير مع المحافظة على الأصل العربي في كتاب واحـد هو المصحف الشريف ، الذي اجتهد المسلمون ، في جميع الاقطار ومن جميع الأمم ، لتعلم لفظه وفهم معناه • وهذا التفسير كان في الغالب شفوياً في البدء ، كما هو معروف من التاريخ الاسلامي ، اذ انتشر الاسلام بين امم مختلفة الجنس واللسان دون أن يُترجم القرآن الى اي لغة من لغاتها • وكان واجب تبليغ الرسالة بعد وفاة رسول الله قد انتقل الى اصحابه وتابعيهم ، ثم الى الأمة الاسلامية العربية كلهـا • وكان تبليغ الرسالة وتعليم القرآن في هـذه

(٢٢) الكشاف (تفسير الزمخشري) ج٢ ص ٦٩٦ •

الأدوار عن طريق التلقين والتفهيم والشرح والايضاح لغير العرب وللعامة من العرب على السواء •

ولكن الفقهاء ، الذين اعتادوا فيما بعد التعقيد حتى عندما حاولوا التبسيط ، فقد ربطوا تعليم القرآن على هذه الصورة بماهية الايمان والتوحيد • وفي هذه المسألة ايضاً خالف ابو حنيفة واصحابه سائر أهل السنة والشيعة (حتى والمعتزلة والخوارج) • فجميع هؤلاء قالوا ان الايمان هو المعرفة بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح • اما الحنفية فقالوا بل هو المعرفة بالقلب والاقرار باللسان فقط ، لأن الاعمال لا تسمى ايماناً • وبنوا رأيهم هذا على القرآن ، فقالوا انه نزل بلغة العرب، والايمان في هذه اللغة هو التصديق فقط ، والعمل بالجوارح لا يُسمى فيها تصديقاً ، فليس هو ايماناً • والايمان هو التوحيد ، والاعمال لا تسمى توحيداً في لغة العرب ، فليست ايماناً[٢٣] •

والغريب في هذه المناقشة التناقض في موقف الحنفية : فهم يقولون ان الله جعل القرآن عربياً ، فكيف ارادوا هم أن يجعلوه أو بعضه فارسيا ؟

(٤)

عرّف العلماء القرآن تعريفات يمكن اجمالها بقولهم انه كلام الله المنزل على محمد ﷺ باللسان العربي ، للتبليغ والاعجاز ، نقل بالتواتر ، ثم حفظ بين دفتي المصحف • والجدل الذي أجملناه فيما سبق كان حول

(٢٣) كتاب اللمع لابي حسن الاشعري (مطبوعة حمودة غرابة • القاهرة ، ١٩٥٥) ص١٢٣، كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم (القاهرة ، ١٣١٧) ج٣ ص ١٨٩ •

جواز قراءة بعضه في الصلاة بلغة غير اللغة العربية • اما كتابة القرآن او بعضه بحروف غير عربية فلم يَبْحثها الأولون بالتطويل ، بل تجنبوها ما امكنهم ذلك ، لتعلقها بمسألة خَلْق القرآن التي شغلت الفقهاء في خلافهم مع المعتزلة • ومجمل رأي أهل السنة ان الحروف كالقرآن نفسه أزلية ، وجدت معه منذ الأزل في « لَوْحٍ مَحْفوظ » (سورة البروج ، الآيتان الأخيرتان) • اما الحنفية فقالوا نعم ان القرآن كلام الله وغير مخلوق ، ولكن الحروف والهجاء والصوت كلها مخلوقة ، اذ كلام الله لا صوت له ولا حروف ولا هجاء[٢٤] • ولهذا أجاز الحنفية كتابة ترجمة القرآن بغير الحروف العربية ، بشرط وضع الترجمة بين أسطر النص العربي • وهذا ما يُسمى اصطلاحاً « الترجمة المقابلة » ، كلمةً بكلمة • أما النطق فالغالب أن الحنفية لم يجدوا لأمره حَلاً ، اذ لا يخفى ان بعض الحروف العربية لا مقابل لها بالفارسية او الهندية او التركية أو غيرها من اللغات الاسلامية • وهذا قد يتسبب سوء النطق ، وهذا بدوره قد يُفْضي الى سوء فهم كلام الله •

والخلاصة ان آخر ما وصل اليه الجدل هو اتفاق الحنفية مع باقي أهل السنة على ان « ترجمة القرآن ليست قرآناً ••• ومحاولة الدليل لها تكلّف ، فليس أحد يُخالف في أن من تكلم بمعنى القرآن بالهندية (فكلامه) ليس قرآناً ، وليس ما لَفَظ به قرآناً • ومن خالف في هذا كان مُراغماً جاحداً »[٢٥] •

هذا ما استقر عليه الرأي حتى نهاية القرن الخامس للهجرة • ولم

(٢٤) كتاب شرح الفقه الاكبر المنسوب الى ابي حنيفة (والشرح المنسوب الى الماتريدي)• طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٢١ ، ص ٢٣ •

(٢٥) مجموع النووي (مطبعة التضامن بالقاهرة • بلا تاريخ) ج٣ ، ص ٣٨٠ •

يطرأ بعده على ما قرره العلماء شيء من التبديل أو التحوير. وكتب الشروح والحواشي العديدة تثبت ذلك ، فكلها تعيد النصوص بحروفها ولا تتوسّع إلا بدلالتها دون تغيير جوهرها . وهذه الشروح والحواشي كثيرة عند أهل المذاهب الأربعة ، لكن كتب الحنفية تحيّر القارىء في عناوينها المتقاربة . فهناك مثلاً ثلاثة شروح على كتاب « الهداية » لثلاثة من المؤلين هذه عناوينها : النهاية ، العناية ، الكفاية . ومثل ذلك كتاب « كنز الدقائق » له شروح منها : تبيين الحقائق ، رمز الحقائق ، البحر الرائق . ومعظم هذه الشروح والحواشي عند اصحاب جميع المذاهب كُتِبَ في عهد الركود الفكري وتعطيل الاجتهاد . ولم تتبدل الحال في جميع انحاء العالمين العربي والاسلامي حتى فجر النهضة الحديثة .

ونذكر من كتب عهد الركود هذا كتاباً واحداً في اصول الشريعة كتبه القاضي المالكي ابو اسحق اسماعيل الشاطبي الذي توفي في غرناطة سنة ٧٩٠ للهجرة . وسبب ذكره أن ما جاء فيه عن مسألة ترجمة القرآن ومزايا اللغة العربية قد استَهْوى علماء الأزهر في عهدنا عندما أعيد فتح باب الجدل بمناسبة الانقلاب السياسي في تركيا والغاء الخلافة وما جاء بعد ذلك من كتابة اللغة التركية والقرآن الكريم بحروف لاتينية بدلا من العربية . ومع ان الشاطبي لم يأت بشيء جديد ، بل سبقه الى كل ما قال الشافعي والجاحظ وابن قتيبة واخوان الصفا وغيرهم من المتقدمين ، فقد سحرت كلماته ثلاثة من الازهرين وهم الشيخ محمد الخضر حسين ، محرر مجلة نور الاسلام (مجلة الازهر فيما بعد) ، والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد مصطفى المراغي (وكل منهما أصبح شيخاً للأزهر فيما بعد) ، فهؤلاء الثلاثة كتبوا حول ترجمة القرآن ، وبدأ كل منهم ما كتب

باقتباس كلام الشاطبي ، دون اتباع التسلسل التاريخي في تطور الفكر الاسلامي حول هذه المسألة من عهد الرسول حتى القرن الخامس على الأقل[٢٦] .

وخلاصة ما قاله الشاطبي هي : الألفاظ العربية إما ان تكون دالّة على معان مطلقة ، أو ان تكون دالة على معان خادمة . أما الأولى فتشترك فيها جميع اللغات ، ولهذا يمكن الإخبار في لسان العرب عن الأولين ممن ليسوا من العرب وحكاية كلامهم في العربية ، كما يمكن العكس وهو حكاية أخبار العرب وأقوالهم بلسان أعجمي . واما الثانية فخاصة باللسان العربي ، وتختلف باختلاف الاسلوب من الايضاح والإخفاء ، والإيجاز والاطناب ، كما يلاحظ في اختلاف المساق في قصص القرآن ، فيأتي مساق القصة في سورة على وجه وفي اخرى على وجه آخر . وعليه لا يمكن لمن اعتبر هذا الوجه الثاني ان يترجم كلاماً من اللسان العربي الى لسان أعجمي على أي حال ، فضلاً عن ان يترجم القرآن . اما اذا اعتبر الوجه الأول فترجمة القرآن ممكنة ، ولهذا صَحّ تفسيره « وبيان معناه للعامة » باتفاق اهل الاسلام « فصار ذلك حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي »[٢٧] .

كلام الشاطبي في القرن الثامن قريب من كلام الزمخشري في القرن السادس ، وكلاهما لا يختلفان عن رأي الجماعة او « اهل الاسلام » من القرن الخامس حتى العهد الحديث . جاء في النص الذي نقلناه اعلاه عن الزمخشري قوله « كما تُرى الحال وتُشاهد من نيابة التراجم في كل امة

(٢٦) نور الاسلام (مجلة الازهر) : العدد الثاني من السنة الثانية ص ١٢٢ ـ ١٣٢ والعدد الثاني من السنة السابعة ص ٧٧ ـ ١١١ ، ١٢٣ ـ ١٣٤ .

(٢٧) كتاب الموافقات (حققه الشيخ عبد الله دراز وطبع بمطبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر . بلا تاريخ) ج٢ ص ٦٦ ـ ٦٨ .

من امم العجم » ، فهذا يدل على ان الترجمة بمعنى التفسير كانت في القرن السادس واسطة رئيسية لتعلّم القرآن وتعليمه ، كما كانت في القرن الثامن واسطة « لبيان معناه للعامة » كما ذكر الشاطبي • ففي اي اللغات الاسلامية وجدت هذه التراجم ؟ لا شك ان أقدمها كان بالفارسية ثم بالتركية • اما التراجم الى غيرهما من لغات الأمم الاسلامية فجاءت بعد انتشار الاسلام شرقاً في الهند والملايو ، وجنوبا في افريقيا شرقيها وغربيها •

وقبل تفصيل ذلك لا بد من هذه الملاحظة ، وهي ان ماضي العالم الاسلامي يدل كما يدل حاضره على انه لم يُعْمل برأي أبي حنيفة حتى ولا برأي صاحبيه ، اي ان المسلمين ، ومنهم اتباع المذهب الحنفي ، لم يقرؤوا ولا يقرؤون الآن ، الفاتحة في الصلاة إلا باللغة العربية • فالإذن الحنفي بقراءتها في غير هذه اللغة ظلّ نظرياً لا عملياً (وأرجو من يعلم خلاف ذلك ان ينبّهني اليه) • اما الترجمة فقد اعتبرها الحنفية مع سائر أهل السنة نوعاً من التفسير ، فحرصوا جميعهم على وضع كل ترجمة تفسيرية بين اسطر النص العربي • وهذا واضح في المخطوطات الموجودة في المكاتب العامة في الشرق والغرب • فلما اقيم « مهرجان العالم الاسلامي » في لندن منذ ثلاث سنوات ، عُرِضت بعض هذه النسخ لإظهار فنون الخط والزخرفة • وقد لاحظت في عدد من النسخ وفي غيرها مما رأيت في المكاتب العامة ان النص العربي كُتب بخط اكبر من خط الترجمة التفسيرية التي وضعت بين سطوره ، سطراً بسطر ، وكلمة بكلمة • وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه المسلمون الذين ترجموا القرآن الى لغاتهم او الى لغات أجنبية •

وظلت نسخ القرآن الكريم ونسخ تفسيره وترجمته مخطوطة عدة قرون • ولم يُطبع النص العربي حتى بعد ظهور الطباعة في البلاد الاسلامية،

وعلى رأسها الدولة العثمانية • فشيخ الاسلام فيها لم يسمح بطبع القرآن الكريم والحديث الشريف عندما سمح ، إلاّ بعد صدور فتوى شرعية وإرادة سلطانية ، بطبع الكتب الأخرى • فلما رُفع المنع وأسست مطبعة أميرية في استانبول اصبحت هذه العاصمة من اكثر بلدان العالم الاسلامي عناية بطبع الكتب الدينية • ثم حذت حذوها مصر بإنشاء مطبعة بولاق • واشتركت في ذلك بعض المطابع التي اعتنت باللغة العربية في اوروبا ، ففيها طبع القرآن الكريم بالعربية لأول مرة في مدينة هامبورغ سنة ١٦٩٤ م ، وبعد ذلك بنحو قرن ونصف القرن طبع في مدينة لَيْبْزك طبعته بعناية المستشرق غُوسْتَاف فْلوغِل في سنة ١٨٤١ م •

وبانتشار فن الطباعة وتقدمه طُبع القرآن مراراً وتكراراً ، وطبع تفسيره بالعربية إما على حدة أو على هوامش صفحاته • ومن اقدم تراجمه المطبوعة ما صدر عن المطبعة الاميرية في استانبول سنة ١٢٤١ للهجرة (او ١٨٢٦ للميلاد) • وصاحب هذه الترجمة التركية هو اسماعيل فَرّوخ أفندي ، وقد سمّاها تفسيراً • وهي في الحقيقة ترجمة ترجمةٍ بالفارسية لصاحبها حسن الكاشفي • وطبعت ترجمة فروخ بعد ذلك ، ومن الطبعات التي رأيناها مسجلة واحدة تاريخها ١٢٨٣ هـ/١٨٦٥ م ••

ثم طُبعت بعد ذلك تراجم بلغات اسلامية وكلها سُميت تفسيراً • ولكن ظهور التراجم بغير الفارسية والتركية من اللغات الاسلامية كان تدريجياً ماشى انتشار الاسلام في الشرق الأقصى وفي افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى • ونافست التراجم باللغات الاسلامية ما وُجد من تراجم باللغات الأوربية كالانكليزية والفرنسية والهولاندية في تلك البلاد الاسلامية التي استولت عليها انكلترا أو فرنسا أو هولاندا •

وفي مكتبة المتحف البريطاني في لندن تراجم القرآن بلغات اوربية مختلفة ، وفيها أيضاً نسخ" مطبوعة من القرآن مع ترجمته التفسيرية بالفارسية والتركية ، ومن لغات الهند بالأوردية والهندوستانية والبنغالية والبنجابية والسندية والكُجَراتية ، وكذلك بلغة تامِل (سيلان) ولغة الملايو ولغة جاوه وغيرها • ومن الطرائف نسخة ترجمةٍ الى لغة مُقَصَّر، ومعها ترجمة الى الهولاندية طُبعتا معاً في مدينة أمستردام سنة ١٨٥٦ م • ومنها أيضاً نسخة مطبوعة على الحجر في دهلي سنة ١٢٨٣ للهجرة (١٨٦٦ للميلاد) ، وهي بالاضافة الى النص العربي تضم ترجمة فارسية بقلم شاه ولي الله دِهْلوي ، وترجمة هندستانية بقلم شاه رفيع الدين دهلوي • ومنها ايضا نسختان مطبوعتان على الحجر ، الأولى سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤ م) أثْبت فيها النص العربي وكُتبت بين سطوره ترجمة فارسية، والنسخة الثانية طبعت سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) أثبت فيها النص العربي وكتبت بين سطوره ترجمة أوْردية • ومن التراجم الأخرى واحدة الى لغة بورما طبعت في مَنْدَلاي سنة ١٩٣٨ م واخرى الى لغة الملايو طبعت في كَلِيكُوت سنة ١٩٣٥ م • نعم هذه وتلك حديثتا العهد ولكن مكان طبعهما له دلالته •

ومن التراجم المستعملة في بلاد افريقيا المغربية ماهو باللغة «الفلانِيَّة» ومكتوب بالحروف العربية ، وما هو بلغة « الهَوْسَا » ومكتوب بحروف لاتينية بجانب الأصل العربي ، وما هو بلغة « اليُورُوبا »[٢٨] ومكتوب

(٢٨) توجد في مكتبة المتحف البريطاني ترجمة الى هذه اللغة مكتوبة بحروف لاتينية وتاريخها « لاغوس ، ١٩٠٢ » ومكان طبعها « نتنغهام بانكلترا » • والمترجم قس اشتغل بالتبشير في نيجيريا وهو يقول في المقدمة انه غير متمكن من اللغة العربية ، ولكنه اعتمد على ترجمتين سابقتين بالانكليزية •

بحروف لاتينية • ومن التراجم في بلاد افريقيا الشرقية ماهو باللغة « السّواحلية » ومكتوب بحروف لاتينية ، ومنها تراجم اخرى بالأمْهرية واليُوغَنْدية • (المعلومات في هذه الفقرة مأخوذة من مصري مسلم اشتغل بالتدريس في نيجيريا • والرجاء من أمثاله أن يُكْملوها أو يصلحوها) •

(٥)

تثبت التفاصيل السابقة وجود عدة تراجم الى لغات اسلامية واجنبية، وان وجودها كان مقبولاً ومألوفاً • فما سبب استهجان بعض علماء مصر، بل احتجاجهم على الترجمة في السنوات الست التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى ؟ السبب الأول هو البَلْبلة وخيبة الأمل التي شملت البلاد الاسلامية عندما خرجت الدولة العثمانية ، دولة الخلافة ، من الحرب خاسرة تأتَمِرُ بأمر الدول الأوروبية المنتصرة • ولم يكن انتصار مصطفى كمال على اليونان واستعادة استقلال الاتراك في بلادهم تعويضاً عن الخسارة ، وخاصة لأنه خيّب آمال المسلمين بما أحدثته حكومته من انقلابات أولها إلغاء السلطنة واعلان الجمهورية بتجريد وحيد الدين من لقب السلطان • فلما هرب مُلْتجئاً الى سفينة حربية بريطانية عيَّن المجلس الوطني الكبير عبد المجيد مكانة للخلافة دون السلطنة ، ولكن المجلس عاد فألغى الخلافة وقرر إخراج آل عثمان في آذار سنة ١٩٢٤ •

وجاء مع هذه الانقلابات الدينية والسياسية انقلاب آخر ألَمَّ العالم الاسلامي ايلاماً شديداً ، وهو اتخاذ الحروف اللاتينية بدلاً من العربية في كتابة اللغة التركية ، ثم ترجمة القرآن الى هذه اللغة وكتابته بالحروف

اللاتينية • فرأى المسلمون ان الأتراك ارادوا الاكتفاء بهذه الترجمة في الصلاة والتلاوة والتعليم ، والاستغناء عن الأصل العربي• فعَلَتْ اصوات الاحتجاج ، وكان اعلاها صوت مصر ، وأعلى الأصوات فيها كان في الجامع الأزهر ، حتى ان بعض العلماء ، ومنهم الشيخ محمد شاكر والسيد محمد الغنيمة التفتازاني ، قد كفّروا الاتراك الذين ارتَضَوْا ذلك •

وفي اثناء هذه البلبلة وجه بعضهم سؤالاً الى لجنة الفتوى في الأزهر هذا نصه : « ماقول سادتنا العلماء ، ايدهم الله ، في كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة ؟ » وهذا السؤال يُضْمِرُ اكثر مما يُعلن ، لأن الاعتراض لم يكن مقصوراً على استبدال الحروف العربية بأخرى لاتينية ، بل كان الاعتراض على نتيجة ذلك ، وهي الاستغناء عن كلام الله المنزل باللسان العربي • ولكن لما كانت الفتوى عادةً تتقيد بنص سؤال الاستفتاء جاء جواب اللجنة مقصوراً عليه ، وهذه صيغته : « الحروف اللاتينية خالية من عدة حروف توافق العربية ، فلا تؤدي جميع ما تؤدي الحروف العربية • فلو كتب القرآن بها على طريقة النظم العربي لوقع الاخلال والتحريف في لفظه ، وتبعها تغيير المعنى وفساده • وهذا ممنوع منعاً باتاً ، ومحرم تحريماً قاطعا • ومن هنا يتبينُ ان كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا تجوز • والله أعلم »[٢٩] •

وهكذا أعيد فتح باب الجدل في جواز ترجمة القرآن ، على الأقل في مصر • ولكنه كان جدلاً بلا معنى ، فكل المسائل المتعلقة به قد أكمل المتقدمون بحثها ووضعوها على اسس ثابتة منذ قرون • اما خَوْض

(٢٩) مجلة الازهر : العدد الاول من السنة السابعة (١٣٥٦ هـ) ، ص ٤٥ ـ ٤٦ •

المحدثين فيها فلم يكن له ما يبرره سوى إقناع النفس ان الاستمرار في ترجمة القرآن كان جائزاً • لهذا لا فائدة من تفصيل ما قالوه ، باستثناء عالمين مشهورين في كلام كل منهما مايستدعي النظر ، وهما الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغي • اما الأول فقد اعتبر نفسه ، وان لم يعتبره كل العلماء ، خليفة محمد عبده بالدعوة للاصلاح والارشاد ، فألف تفسيراً جديداً للقرآن الكريم ، واما الثاني فكتب لما كان شيخ الجامع الأزهر مقالة عن احكام ترجمة القرآن ، على مذهب فقهاء الحنفية ، نُشرت في مجلة الأزهر ، ثم اعيد نشرها « بمناسبة شروع مشيخة الأزهر ، بالاشتراك مع وزارة المعارف ، في ترجمة معاني القرآن الكريم الى اشهر اللغات الأوروبية » • والناظر في احوال مصر السياسية حينئذٍ قد لا يرى في مقالة شيخ الأزهر سوى الدفاع عن المشروع أمام معارضيه الكثيرين •

اما كلام الشيخ رشيد رضا فهدفه ديني محض ولا علاقة له بسياسة مصر أو سياسة الأتراك • يَبْني كلامه على وجوب تبليغ دعوة الاسلام ورسالة محمد الى جميع البشر ، ولاهتداء المسلم الاعجمي عنده درجتان : دُنْيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم ، فيحفظون الفاتحة وبعض السور القصيرة لقراءتها في الصلاة « ويُترجم لهم معناها بلغتهم »، وعُلْيا خاصة بالمشتغلين بالعلم ، وهؤلاء يجب ان يتقنوا لغة القرآن ويفهموه بها مستعينين بالتفاسير • وهذا الرأي شديد الشبه بما أوجبه الشافعي على كل مسلم ان يتعلم من العربية ما بلغه جهده • والشيخ رشيد رضا هو أحد المحدثين الذين يؤكدون استحالة ترجمة القرآن ترجمة حرفية، ولكنه يقول بجواز ، بل وجوب ، ترجمة معاني القرآن لأهل كل أمة

بلغتهم ترجمة تفسيرية(٣٠) .

وطريقة الشيخ مصطفى المراغي في البحث والاستنباط أنه يقتبس النصوص من مختلف كتب الأصول والفروع والشروح دون نظام تاريخي ثم يكتفي في معظم المسائل بقوله « هذه نصوص صريحة مطلقة لا تحتمل التأويل » ، وما هي كذلك ، بل بعضها غامض ، سقيم اللغة ، يحتمل اكثر من معنى واحد .. ومن الصعوبات الأخرى التي يجدها من يريد رؤية هذه النصوص في أصولها أن الكاتب قد يذكر المؤلف دون ذكر كتابه ، وقد يذكر الكتاب دون ذكر مؤلفه ، وقد يذكر هذا وذاك دون دكر المجلد أو الصفحة في معظم الأحيان .

وتتناول المقالة مسألتين رئيسيتين ، الأولى جواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة على رأي صاحبي ابي حنيفة ، وعلى فرض انه هو قد رجع عن رأيه ، والثانية جواز ترجمة القرآن اجمالاً .

ليس في المقالة عن هاتين المسألتين من جديد ، فاذا كان بحث الأولى للعلم فما قاله علماء السلف كافٍ ومعلوم ، واذا كان للعمل فلا حاجة له ايضاً لأن الكاتب لم يذكر ضرورته ، بوجود من يريد قراءة القرآن بغير العربية في صلاته حتى بين الحنفية . وقبول الاستاذ الاكبر كتابة تراجم القرآن مع النص العربي يُعد من باب الموافقة على الأمر الواقع ، وكذلك قوله بجواز الترجمة المعنوية لأنها بمنزلة التفسير ، فهذا ما اتفق عليه علماء كل المذاهب . لكنه يصعب فهم استنتاجه من الفقه الحنفي جواز الصلاة بالترجمة الحرفية وعدم جوازها بالترجمة المعنوية . فما هي الترجمة

(٣٠) تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار (القاهرة ، ١٣٤٦/١٩٢٣) ج١ ص ٣٠٧ ـ ٣٢٣ ، ٣٢٥ ـ ٣٣١ .

الحرفية ، وهل هي مستطاعة ؟ على كل حال هذا أمر نظري ، لا ينطبق على الواقع في العالم الاسلامي ، وختام المقالة يبرهن على ان غرضها الحقيقي هو الدفاع عن مشروع الترجمة المذكور والرد على معارضيه • قال الاستاذ الاكبر :

« قد غبرت قرون من لدن اختلف العلماء في جواز الصلاة بغير العربية• وترجم القرآن الكريم مرات الى شتى لغات العالم ، وما وجدنا معقل العربية قد اسلمه حماته • وخير أن يوجد للناس بالقدر الممكن ما تستقر عليه آراء أشياخ العربية والدين من فهم معاني كتاب الله ••• وحرام ان تبقى هذه المعاني محجوبة عن أعين الناس فراراً من أوهام الخائفين وحذاراً من إشفاق المُعَوِّقين • وسيجد المُخْلصون في الترجمة اكبر خدمة لدين الله الذي ارتضاه ••• »(٣١)

لا نعرف لماذا قدّم علماء الأزهر ترجمة القرآن الى لغات اوروبية على ترجمته الى لغات اسلامية ، مع قلة الحاجة الى الأولى وشدتها الى الثانية • لكن على كل حال لم يثمر مشروعهم كثيراً • اما الشيخ المراغي فكان له فضل في ارشاد مترجم مشهور • وكان هذا المترجم انكليزيا وابن قس انكليزي ، أسلم بعد درس وفكر وإقامة طويلة بين المسلمين في بلادهم ، واسمه بعد إسلامه محمد مَرْمَدْيُوك بِكْتَال • جاء مصر ومعه أصول ترجمته فاستفاد من الشيخ المراغي وغيره من العلماء ، ولكن الدكتور محمد أحمد الغَمْراوي هو الذي راجع الترجمة كلها وصحّحها مع صاحبها • ثم نُشرت في لندن سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « معاني القرآن المجيد » •

(٣١) مجلة الازهر : العدد الثاني من السنة السابعة ، ص ٧٧ ومايليها •

وهذا العنوان واضح الدلالة ، يُعْلن للقارىء أن الترجمة ليست اكثر من تفسير معاني النص العربي • والمترجم هو أول مسلم قال ببطلان كل ترجمة لا يؤمن صاحبها برسالة محمد ، لأن عدم إيمانه يعوقه عن فهم المعنى وترجمته ترجمةً دقيقةً صادقةً • وهذا القول ثابت بالرجوع الى عدد من التراجم السابقة ، فمُعْظمها كان للهدم لا للفهم ، وللتشنيع لا للتعريف • نعم تغير ذلك مع الزمن ، ولكن رأي بكثال مازال صحيحاً •

وفي الختام هذا سؤال ربما خطر على بال القارىء : لماذا أحجم العرب ، حيث أقدم غيرهم من المسلمين ، عن ترجمة القرآن ؟ أهمّ اسباب الاحجام الآيات الصريحة في القرآن ، فما جعله الله عربياً لم يَجْسُر عربي أن يجعله غير ذلك ، فللقرآن في روع كل عربي واقفٍ على اسرار بلاغته العربية منزلة من التعظيم والتكريم لا تعلو عليها منزلة ، فهو يُضْمِر في قلبه حِرْصاً على إبْقاء هذين التراثين ، القرآن الكريم ولغته الشريفة ، متكاملين على الوجه الذي أراده الله وارتضاه رسوله وألِفَهُ العرب •

عبد اللطيف الطيباوي